**تاسعا- شعرية السرد الصوفي:**

القصة الصوفية، جنس أدبي (قصة) موصوف بمذهب فكري وديني ومعرفي (الصوفية)، فهي إذن تطرح في بناها التعبيرية وأساليب تشكيل رؤيتها الفنية والموضوعية، مفهومات فكرية ودينية، بل تمثل فلسفته في الوصول إلى الحقيقة والسعادة والكمال، فهي أدب معرفي أو من قبيل تحميل الأدب بإيديولوجيا، والنظر في أنظمته المجردة والمسطورة في طروحات مصنفات الصوفية الكثيرة.

والحق أن هذا الأمر مطلب عقلاني ينبغي توافره لمن يعد نفسه لدراسة مقومات بنية جنس أدبي يمثل مذهباً فكرياً له أهمية كبيرة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، هذا من جانب. ومن جانب آخر سيضيء لنا هذا البحث أسباب اللجوء إلى القص، في الوقت الذي هو (الصوفي) قادر على زج تجربته الصوفية في أشكال تعبيرية أخرى.

**1- الخطاب الصوفي:**

وافقت بدايات خطاب الصوفي أزمات فهم وتواصل معقدة ومتداخلة قست على هذا الخطاب وممارسيه، وقد نتج عن أزمات الفهم هذه أن تم اختزال أدبهم وتهميشه ضمن دائرة المذاهب الدينية أو العقدية التي لا تعني غير أصحابها، وجهد القوم في تحجيم خطاب الصوفية ووسم " شطحاتهم" بالجنون والزندقة وحتى الإلحاد.

ويكفي التذكير بأزمة رائدهم الحلاج وماعاناه من عسر في مستوى التلقي والفهم انتهت بصلبة للتدليل على حدة التنافر بين التجربة الدينية العادية ومؤسّساتها الراعية لها وبين تجربة تروم تخطى الفهم التقليدي للشريعة وتجاوز حدودها ورسومها إلى عبادات جديدة تشجب الخوف والطمع

لقد كان درس مقتل« الحسين بن منصور الحلاج» قاسيا في جوهره على من جاء بعده من أتباع الصوفية، وغدا التفاعل السلبي معه وعُسر فهمه من العامة والمؤسسة الدينية على حدِّ السواء، معلّما للأجيال الاحقة من الصوفية، لتتدبر أوَّلا كيف لم يُفهم شيخهم على الرغم من انتفاح القراءات عند المسلمين وسعة التأويل لديهم، وكيف عجز الآخر عن تأويل علاقته المباشرة مع الله بعد أن تضخّمت الأنا عنده تجاه خالقها، من نحو قوله:

**أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا**

**فإذا أبصرتنـي أبصرته وإذا أبصـرته أبصـرتنا([[1]](#footnote-2)).**

سيحاول المتصوف من خلال خطابه البحث عن وسائط يقي بها خطابه من أزمة الفهم هذه ويجنبها الصدام مع من لا يفهم.

ومن هنا بدأ المتكلم الصوفي يوظف المُخاتلة وتخيرَّ الألفاظ وتوريتها بطبقات من الرموز والمعاني التي يعسر على غير من دخل الدائرة الصوفية وصار من مريديها فكَّها، أو تأويلها وهو ما أفضى عندهم إلى تأكيد أهمية مفهوم الغموض لستر المعرفة عمن ليس أهلا لها، ودفع خصومهم إلى نعت خطاباتهم بالألغاز والطلاسم والهذيان، التي لا يفيد المتقبل العادي فهم ظواهرها ومعانيها الأُول، فما بالك بثوانيها، ولقد أنتج هذا العسر في تاريخ الآداب العربية نفورا من هذه التأليفات وتضييقا عليها، واتهامات لها ولأصحابها بما ذكرنا بعضه سابقا.وحتى المحاولات المتأخرّة المتصوفة من أمثال ابن عربي في كسر تلك الدائرة المغلقة وتوسيع مجال التواصل إلى ماهو خارج عن نطاق المتصوفة عن طريق التأويل وإدخال الرؤيا والشطح وإدماج القصّ الصوفي داخل نصوصه.

**2- السرد الصوفي:**

تكمن طبيعة المخاطب الماثل في ذهن المتكلم، في نوعين: من جهة هناك مخاطب في مرتبة معلومة عنده من داخل الدائرة الصوفية لا من خارجها تنتمي إلى طبقة من الطبقات السبع التي يسلكها المريد ليصل إلى مصاف الأقطاب في رحلة معرفة لا تراجع فيها، وهما العارف والمريد أو القطب والمريد أو المريد والمريد أو القطب والقطب وهي كلّها أطراف من داخل دائرة الصوفية المغلقة لا يكتمل فيها المعنى إلاّ إذا أغلقت مراتيجها، سورت أسوارها إذ «المشهد هناك لمن يريد أن يراه» على حدّ قول الغزالي، بخاصة وأنه «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» كما يقول النفري، وبات ضرورة التخاطب على غير حال الخطاب في معانيه التي تعاهدها الناس، بعد أن صارت" قوالب ألفاظ الكلمات. لا تحمل عبارة معاني الحالات"، كما ينبّه لذلك الشيخ محي الدين بن عربي وقد أجبر ضيق العبارة شيخ الصوفية إلى إختلاق أشكال تراوح بين الغموض والوضوح، بين الكتمان والإظهار أو بين التعريض والتصريح وعيا منه بحضور من هو من خارج دائرة الصوفية.ومن جهة أخرى هنالك المخاطب العادي الذي قد يتسرَّق الأسماع وهو ماثل أيضا ذهن المتكلم الصوفي ولكنه ليس أهلا للمعرفة الحقّ، ولا يحن له أن يفهم إلا بمقدار، وهو حاصل عليه ومعرفته دون أن يشكّ أو يؤوّل أو يصطدم بمعاني غير المعاني الظاهرة من قول المتكلم.

لذلك دُفع ابن العربي إلى توظيف القصص الصوفي والشطح والرؤيا داخل كتبه حتى يأسر قلوب هؤلاء المخاطبين المفترضين، ويبعد عنهم الشك والريبة وسوء التأويل ومن ذلك مثلا حديثه في«الفتوحات المكيَّة».

تختلف الضرورة من صوفي إلى آخر ومن مؤلَّف إلى آخر. وهي في القصص الصوفيّ غيرها في النصوص الصوفية الأخرى المرتبطة بالمناجيات أو سرد الأحوال والمواقف خاصة يعد أن تطور التصوف مفهوما ودلالة وفكرا وارتبط بمعارف وعلوم مختلفة أثرت في التجربة الصوفية كتابا وسلوكا، ويمكننا تجوَّزا أن تجمل أشكال هذه النصوص السردية في التالي:

**أولا:** مناجيات لله (عز وجل) والتضرع إليه في شكل تراتيل وأدعية وأوراد تقترب لغتها كثيرا من لغة القرآن الكريم، وفيها توخٍّ لملامح بلاغية في التعبير.

**ثانيا**: نصوص الحكمة والإرشاد، تطول وتقصر، وتتسم بالمعنى الشمولي في لغة خطابية واضحة.

**ثالثا:** المقامات والأحوال والمواقف هذا الضرب من السرد الصوفي ورد عند ذي النون المصري على أسلوب الأقصوصة والحكاية، تارة، وعلى الأسلوب التعليمي تارة أخرى.

وقد التجأ الصوفية في مختلف هذه الأشكال السردية –وبطرق مختلفة- إلى التشفير والترميز والتعمية وتوظيف القصّ لأسباب منها:

**1-** تجنب الكشف عن المعنى الدقيق للعبارة في النهج الصوفي، تحوطا من مقابلتها بسوء الفهم أو التأويل أو النبذ أو الإزدراء، وهي معان ذوقية، وجدانية يجدها الإنسان نفسه ولا تقدر أن يصورها لغيره إلا بضرب المثال، أو التجوّز البعيد.

**2-** وقد رُوعي فيه المخاطب بنوعية المقصود بالقول غير المقصود بالقول، وحسن استقبال النفس للعظة أو النصيحة أو الحكمة أو المعلومة، إذا ما بُثَّت في شكل قصة أو حكاية أو رؤيا في حلم خاصة، لهذا نلاحظ ملمح المبالغة والخوارق في بعض أحداث القصص والرؤى ومضامنيها.

نذكر هنا على سبيل قصص إبن عربي مع الخضر ولقاءاته العديدة معه وقد أو ردها كلَّها في شكل خواطر ورؤى وأحلام يقظة.

1. () ينظر: ديوان الحلاج، تحقيق ماسينيون، باريس، 1955 [↑](#footnote-ref-2)